تابع الدين . والشرف . والمروءة في حسِّ الملك عبد العزيز رحمه الله

العنصر الثامن: تعظيم حرمات الله، وتقدير العلم والعلماء

إن من مظاهر الحس الديني العظيم في حياة الملك عبد العزيز رحمه الله تعظيمه لحرمات الله وتقدير العلم والعلماء.

يقول في كلمة له عام 1348ه: "... إن الله جلت قدرته حكيم إذ جعل للاجتماع في بيته الحرام فوائد جمة:

أولها: الإخلاص في عبادة الله تعالى في أقدس بقعة حيث جعل بيته الحرام وأرسل رسوله من أفضل قبيلة قطنت هذه الديار، وقد جعل الله الفخار لأي كان بالتقوى لا بغيرها فلم يكن في الإسلام تفاضل بين العربي وغير العربي إلا بها وفخار العرب وعزهم بالإسلام وبمحمد صلى الله عليه وسلم. والكريم عند الله هو التقي الورع **{إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ}** ١ وقد أنزل الله على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم خير الكتب فأمرنا بهذا الكتاب المبين وبرسوله وهذا خير فخار لنا"٢.

وفي كلمة له عام 1350 هـ أمام المؤتمر الوطني يقول: وأفضل شيء يقام هو تنفيذ أوامر الله تعالى في هذه البقعة المباركة التي أنزل بها الوحي وبعث بها محمد صلى الله عليه وسلم وهي مسقط رأسه ومدفنه، أضف إلى ذلك أن الحسنات فيها تتضاعف كما تتضاعف فيها السيئات أيضاً ولذا يجب علينا أن نرغب في جلب الخير وأن نرهب من الشر، وهذا يكون باتباع أوامر الله والنية الصحيحة والعمل الطيب والإنسان الذي لا يقوم بما أمر الله به لا ينجح أبداً..

وبلدكم هذا بلد الله الحرام فإذا لم نحرم ماحرم الله كانت نقمة الله علينا عظيمة، ثم كان هنالك كذب على الله لذلك يجب أن ننظر في مسألة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تنفيذاً لأمر الله وحفظاً له ويجب النظر في الأمور التي تمادى البعض فيها وماهي إلا لهو ودنو إلى الشر وبعد عن الخير"٣.

ويقول في كلمة له: مسألتان لايمكن أن نقبلهما ولو قاتلنا أهل الأرض حتى لايبقى فينا أحد:

التغيير في دين الله ولو مثقال خردلة، لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، فالكتاب والسنة لا نحيد عنهما أبداً.

والثانية: أن أي أمر يلحق استقلال أو شرف بلادنا فهذا مستحيل أن نقبله ولو تكلم من تكلم أو قال من قال٤.

ويقول رحمه الله مذكراً بمسؤلية أهل البلد الحرام: " أوصيكم بتقوى الله واتباع كتابه والإهتداء بسنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، وأن تعضوا عليها بالنواجذ، وأنتم بلد الله وسكان حرمه الشريف، ويجب أن تتمسكوا بذلك أكثر من غيركم.."٥.

ويقول عن عاشر ذي الحجة: " أنا في غنى عن التنويه بعظمة هذا اليوم، فإن الله سبحانه وتعالى قد جعل اجتماع المسلمين فيه لأداء فريضة الحج الذي هو ركن من أركان الإسلام من جهة وللتعارف والتآلف من جهة ثانية"٦.

ويقول رحمه الله عن المصطفى صلى الله عليه وسلم: " إن نعم الله على خلقه لا تحصى، ومن كمال نعمه بعثة محمد صلى الله عليه وسلم {لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ماعنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم * فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم } ٧ ومحمد صلى الله عليه وسلم بعث من أشرف قبيلة، ومن أشرف أمة، وهو أفضل المخلوقات على الإطلاق، وأفضل من أي شيء بعد الله، ولقد جاء رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم بالهدى والبينات جاء بأفضل الأديان ألا وهو دين الإسلام"٨.

ودخل عليه شاعر وألقى قصيدة كان مطلعها:

"أنت آمالنا وفيك الرجاء"

فصاح به رحمه الله وأنكر عليه بشدة، ولمح في المجلس الشيخ حمد الجاسر فقال: علمه التوحيد يا ابن جاسر٩.

وأما موقفه من العلم والعلماء فهو موقف المؤمن الصادق الذي يعلم أن نجاح الأمة وفلاحها مرهون بتمسكها بدينها، وطريقها إليه العلم والعلماء.

يقول الزركلي: كان لعلماء الدين المقام الأول عند الملك عبد العزيز، يقدمهم على إخوانه وأبنائه وكبار جلسائه، ويصغي إلى آرائهم، ويبالغ في أكرامهم.. وكان لكبارهم هيبة في نفسه

---

١ سورة الحجرات آية 13.
٢ المصحف والسيف (61).
٣ المصحف والسيف (68).
٤ المصحف والسيف (75 76).
٥ المصحف والسيف (82).
٦ المصحف والسيف (92).
٧ سورة التوبة آية (128 129).
٨ المصحف والسيف (95).
٩ شبه الجزيرة (746/2).

لايصطنعها، ولا يتعمّلها ولا سيما آل الشيخ... سُمع مرة يقول: ما لقيت الشيخ يعني عبد الله بن عبد اللطيف إلا تصبب العرق من إبطي...

وكان يقع اختلاف في وجهات النظر أحياناً بين الملك وبعض العلماء خاصة في بعض الأمور المستحدثة وكان الملك رحمه الله القوي الحكيم في معالجة تلك الأمور يقول الزركلي عن ذلك:

" ويبالغ الكتاب في وصف ما كان يبذله من الجهد في بدء نمو الدولة لإقناع المشايخ ولاسيما الإخوان... بأن استخدام الآلات الحديثة كاللاسلكي، والتلفون، والسيارات لا حرج فيه من الدين.. على أن هناك ما لا ينبغي إغفاله. وهو أن الملك عبد العزيز كان يعلم أن المرء عدو ما جهل، ويعلم أن أكثر من عارضوه في استخدام الآلات الحديثة إنما كانوا يُصدرون عن نية حسنة.. ولم تكن معارضتهم لرغبة في الشغب أو لعرقلة تقدمه الاجتماعي والنظامي بالدولة بل يعارضون لأن الواجب ديناً، ولأن من مقتضيات الإخلاص للإمام أن ينصحوه فيما يعن لهم أنه انحراف عن نهج السداد...

ولكن عبد العزيز الحكيم المتأنّي الحريص على أن تلتف قلوب الناس حوله قبل جسومهم كان يكبر في دخيلة نفسه جرأتهم ويجل صراحتهم، ويطيل التفكير في حل عقدهم النفسية ويلتمس العذر لمن عادى ما يجهل منهم.. ثم كان عبد العزيز في المدة الأخيرة من حياته، إذا ذكر ما لقي من بعض المشايخ في إبان وثبته أكثر من حمد الله على توفيقه له في أخذ النصحاء منهم بالرفق، ونوه بذكر السابقين منهم إلى الاقتناع وبما كان لمواقفهم في نصرته من الأثر في قمع المتشددين وهداية المسترشدين"١٠.

وليس غريباً على الملك عبد العزيز رحمه الله بصفة خاصة وآل سعود بصفة عامة أن يقفوا من العلم والعلماء مثل هذا الموقف المشرف، فهم أدرى الناس بأهمية العلم والعلماء لقيام الحكم العادل القوي، وقد تيقنوا أثر ذلك عبر فترات الحكم السعودي الثلاث، كما أن التاريخ يشهد أن الأمة التي تحتكم إلى العلم الحق والعلماء الربانيين في أمورها يكون الفلاح طريقها والنصر حليفها، وها هو أخيراً الملك عبد العزيز يوصي ولي عهده الملك سعود في أول وصية له بعد أن عهد إليه بولاية العهد يقول له: " أوصيك بعلماء المسلمين خيراً أحرص على توقيرهم، ومجالستهم وأخذ نصيحتهم، واحرص على تعليم العلم لأن الناس ليسوا بشيء إلا بالله ثم بالعلم ومعرفة هذه العقيدة "١١.

وأقيمت في القصر الملكي بالرياض حفلة عشاء وجاء دخول المدرسين إلى قاعة الطعام متأخرا يقول أحمد على راوي القصة فرآنا الملك ونحن ندخل القاعة فلم يسمح لنا بالتقدم بل أجلسنا على مائدته، وأخذ يقول للأمراء إنهم يستحون فاقطعوا لهم اللحم١٢.

العنصر التاسع: إقامة الدولة على الإسلام والاحتكام إليه

لقد كان تطبيق الشريعة الإسلامية تطبيقاً تاماً في كل شئون الحياة هو الهدف الرئيسي للدولة السعودية في أدوارها الثلاثة :

الهدف الرئيسي لأنه مقتضى الإيمان ولا إيمان بدون ذلك.

الهدف الرئيسي لأنه كان دائماً مصدر القوة والخير في حياة الأمة الإسلامية عبر تاريخها.

الهدف الرئيسي لأنه كان مصدر عظمة الدولة السعودية في أدوارها الثلاثة.

وسر تلك المنزلة العظيمة التي تبوأتها في نفوس المسلمين.

يقول كشك: " ولاشك أن أولى المحاولات، هي المحاولة السعودية التي بدأت في القرن الثامن عشر واستطاعت أن تتجدد في مطلع القرن العشرين فقد كانت... أقوى وأبرز طرح للحل الإسلامي في ظروف الهزيمة الشاملة للمسلمين أمام الغزوة الأوروبية التي لم يكن احتلالها العسكري هو أخطر أسلحتها بل محاولة إقناع المسلمين بأن الإسلام قد انتهى عصره وأن التغريب هو حتمية التاريخ فاستطاع السعوديون بدعوة محمد بن عبد الوهاب تأخير التغريب مئة عام رغم هزيمتهم كما استطاعوا أن يطرحوا أول وأكمل ثورة عربية وذلك بطرحها في صيغتها الشرعية أعني العروبة الملتحمة بالإسلام لا المتمردة ولا المتآمرة على الإسلام... إذ استطاع رجال لا ينتمون لعزوة قبلية ولا إلى دولة غنية ولا إلى خلفية حضارية أن ينفضوا غبار التاريخ عن بيئتهم ومجتمعهم ووطنهم وأن يشغلوا العالم بالمسألة السعودية والحل الإسلامي... وإذا بالسعوديين يهبون مرة أخرى بقيادة عبد العزيز فيطرحون الحل الإسلامي وينتصرون بل يكون نصرهم هو النصر الوحيد على الساحة العربية، إن لم نقل في العالم الثالث حتى النصف الثاني من القرن العشرين فهم وحدهم نجحوا في إقامة كيان مستقل خارج السيطرة المباشرة للاستعمارية الغربية١٣، إذاً جاء الملك عبد العزيز وهو موقن أنه لا نصر ولا تمكين إلا بتحكيم شرع الله وهو الهدف الرئيسي والغاية القصوى لقيام الدولة السعودية.

يقول رحمه الله في خطاب له سنة 1349 ه "... وإنكم تعلمون أن أساس أحكامنا ونُظمنا هو الشرع الإسلامي وأنتم في تلك الدائرة يعني مجلس الشورى أحرار في سن كل نظام

---

١٠ شبه الجزيرة (741/2 745).

١١ الوجيز (159).

١٢ الوجيز (333).

١٣ السعوديون والحل الإسلامي (726).

وإقرار العمل الذي ترونه موافقاً لصالح البلاد على شرط أن لا يكون مخالفاً للشريعة الإسلامية لأن العمل الذي يخالف الشرع لن يكون مفيداً لأحد والضرر كل الضرر هو السير على غير الأساس الذي جاء به نبينا محمد صلى الله عليه وسلم "١٤.

ويقول رحمه الله أمام المؤتمر الوطني سنة 1350ه : "إن الدنيا إذا كثرت خبرتها والدين أهمل فلا فائدة ترجى منها، بل هذا أساس البلاء، أما إذا عمر الدين ونفذت أوامره واجتنبت محارمه صلحت الدنيا فأنا أرجو أن تفكروا في طاعة الله ومخافته واتباع سنة رسوله، وأرجو أن تهتمو بالأمر اهتماماً شديداً.. وصفوة القول أنه إذا صلح الرأس صلح الجسد، وأمور الدين هي الرأس فإذا استقام أمره أصلحت أحوالنا الدنيوية"١٥.

ويقول سنة 1351ه أمام كبار رجال الدولة: "وإنّي أرى كثيراً من الناس ينقمون على ابن سعود، والحقيقة ما نقموا علينا إلا لاتباعنا كتاب الله وسنة رسوله، ومنهم من عاب علينا التمسك بالدين، وعدم الأخذ بالأعمال العصرية، فأما الدين فوالله لا أغير شيئاً مما أنزل الله على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم، ولا أتبع إلا ما جاء به، وليغضب علينا من شاء وأراد، أما الأمور العصرية التي تعنينا وتفيدنا ويبيحها دين الإسلام فنحن نأخذها، ونعمل بها، ونسعى في تعميمها، أما المنافي منها للإسلام فإننا ننبذه، ونسعى جهدنا في مقاومته، لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، ولا مدنية أفضل وأحسن من مدنية الإسلام ولا عز لنا إلا التمسك به"١٦.

ويقول في كلمة له: "... وقد هدانا الله جل شأنه إلى الصراط السَّوي في معاشي الدنيا والآخرة فقال في كتابه العزيز {واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا} ١٧ فالاعتصام بحبل الله واجب على كل فرد من أفراد المسلمين لأن العزَّ كله، والخير كله بذلك فإذا حُدنا عن هذا السبيل خسرنا الدنيا والآخرة"١٨.

وأمام المؤتمر الإسلامي يقول رحمه الله سنة 1344ه: "... ففي بحبوحة هذا الأمن والحرية التي لاتتقيد إلا بأحكام الشرع أدعوكم إلى الائتمار والتشاور في كل ماترون من مصالح ونظم يطمئن إليها العالم الإسلامي بإقامة شرع الله، والتزام أحكامه وآداب دينه"١٩.

ويقول رحمه الله سنة 1350 هـ: "... فلنعرف ذلك، ولنحتفظ بديننا، ولغتنا، وبلادنا، ولنحبها حباً جماً لا مانع من أن نأخذ من غيرنا المفيد، فالحكمة ضالة المؤمن يلتقطها حيث وجدها، وقد كانت للعرب في جاهليتها خصال حميدة وكانت لغيرهم أيضاً فجاء الإسلام فأقرها"٢٠.

ويقول سنة 1347هـ: "إن المسلمين متفرقون اليوم طرائق بسبب إهمالهم العمل بكتاب الله وسنة رسوله"٢١.

ويقول رحمه الله: "يجب أن نداوي أنفسنا بطاعة الله سبحانه وتعالى، فطاعته مصدر كل عز وخير لنا"٢٢.

وقال: "إني مسافر إلى مهبط الوحي لبسط أحكام الشّريعة، ولن يكون في مكة بعد الآن سلطان لغير الشرع"٢٣.

يقول الزركلي: "كان عبد العزيز كلما سئل عن دستور بلاده أجاب دستورنا القرآن وهو يعني تقيده هو ومملكته بأحكام الشّرع الإسلامي المستمدة من معاني القرآن، وما لم يكن فيه فمن حديث رسوله وعمله، وما لم يكن فيهما فمن قضاء أصحابه وسيرتهم... الخ "، وأشار إلى أن أول نظام وضع للمملكة كانت مادته من إملاء عبد العزيز بمكة سنة 1345هـ وقد جاء فيه:

5 - جميع أحكام المملكة تكون منطبقة على كتاب الله وسنة رسوله وما كان عليه الصحابة والسلف الصالح"٢٤ وأعلنت المملكة عام 1364هـ للدول العربية: أنها ستمتنع عن تنفيذ أي مبدأ في التعليم أو التشريع يخالف قواعد الدين الإسلامي وأصوله٢٥.

وتحقق الهدف وأدرك الناس من مسلمين وغيرهم سمو الهدف وعظمة الإنجاز، وأينعت الثمار على خير وجه.

يقول الأمير شكيب أرسلان: "... إلى أن آل أمر الحجاز إلى الملك عبد العزيز بن سعود منذ بضع عشرة سنة فلم تمض سنة واحدة حتى انقلب الحجاز من مسبعة تزأر فيها الضواري في كل يوم بل في كل ساعة إلى مهد أمان وقرارة اطمئنان، ينام فيها الأنام بملء الأجفان، ولا

---

١٤ المصحف والسيف (64).
١٥ المصحف والسيف (68).
١٦ المصحف والسيف (80).
١٧ سورة آل عمران آية 103.
١٨ المصحف والسيف (92).
١٩ المصحف والسيف (50).
٢٠ المصحف والسيف (71).
٢١ المصحف والسيف (55).
٢٢ المصحف والسيف (93).
٢٣ الوجيز (86).
٢٤ الوجيز (90 91).
٢٥ شبه الجزيرة 1208/3.

يخشون سطوة عاد، ولا غارة حاضر ولا باد، وكأن أولئك الأعراب الذين روعوا الحجيج مدة قرون وأحقاب لم يكونوا في الدنيا، وكأن هاتيك الذئاب الطلس تحولت إلى حملان فلا نهب ولا سلب ولا قتل ولا ضرب ولو شاءت الفتاة البكر الآن أن تذهب من مكة إلى المدينة أو من المدينة إلى مكة أو إلى أية جهة من المملكة العربية السعودية وهي حاملة الذهب والألماس والياقوت والزمرد ما تجرأ أحد أن يسألها عما معها... فسبحان محول الأحوال ومقلب القلوب، والله لا يوجد في هذا العصر أمن يفوق أمن الحجاز لا في الشرق ولا في الغرب ولا في أوربا ولا في أمريكا، وقد تمنى المستر "كراين" الأمريكي صديق العرب الشهير في إحدى خطبه أن يكون في وطنه أمريكا الأمن الذي رآه في الحجاز واليمن وكل من سكن أوروبة، وعرف الحجاز في هذه الأيام يحكم بأن الأمنة على الأرواح والأعراض والأموال في البقاع المقدسة هي أكمل وأشمل وأوثق أوتاداً وأشد أطناباً منها في الممالك الأوروبية والأمريكية، فأين أولئك الذين كانوا يقولون إن الأعراب لا يقدر على ضبطها إنسان، وأن سكان الفيافي هم غير سائر البلدان فها هو ذا ابن سعود قد ضبطها بأجمعها في مملكته الواسعة ومحا أثر الغارات والثأرات بين القبائل وأصبح كل إنسان يقدر أن يجوب الصحاري وهو أعزل، ويدخل أرض كل قبيلة دون أن يعترضه معترض أو يسأله سائل إلى أين هو غاد أو رائح... وقد سرت بشرى الأمان الذي شمل البلاد المقدسة الحجازية فعمت أقطار الإسلام، وأثلجت صدور أبنائه، وارتفعت عن الحجاز تلك المعرّة، التي طالما وجم لها المسلمون، وذلك بقوة إرادة الملك عبد العزيز بن سعود والتزامه حدود الشرع"٢٦.

ويتناول عبد القادر عودة الإنجاز من خلال حديثه عن عظمة الشريعة الإسلامية وما يجنيه من طبقها وسار على هديها من أمن وعز وتمكين فيقول:

"ولقد مرّ على الشريعة الإسلامية أكثر من ثلاثة عشر قرناً، تغيرت في خلالها الأضاوع أكثر من مرة، وتطورت الأفكار والآراء تطوراً كبيراً، واستحدث من العلوم والمخترعات ما لم يكن يخطر على خيال إنسان، وتغيرت قواعد القانون الوضعي ونصوصه أكثر من مرة لتتلائم مع الحالات الجديدة والظروف الجديدة، بحيث انقطعت العلاقة بين القواعد القانونية الوضعية التي نطبقها اليوم وبين القواعد القانونية الوضعية التي كانت تطبق يوم نزلت الشريعة، وبالرغم من هذا كله، ومع أن الشريعة الإسلامية لا تقبل التغيير والتبديل ظلت قواعد الشريعة ونصوصها أسمى من مستوى الجماعات وأكفل بتنظيم وسد حاجتهم وأقرب إلى طبائعهم وأحفظ لأمنهم وطمأنينتهم.

... وإذا لم تكن الشريعة من صنع الجماعة فإن الجماعة نفسها من صنع الشريعة إذ الأصل في الشريعة أنها لم توضع لتنظيم شئون الجماعة فقط كما كان الغرض من القانون الوضعي.

دائماً المقصود من الشريعة قبل كل شيء هو خلق الأفراد الصالحين والجماعة الصالحة وإيجاد الدولة المثالية والعالم المثالي ومن أجل هذا جاءت نصوصها أرفع من مستوى العالم كله وقت نزولها ولا تزال كذلك حتى اليوم وجاء فيها من المبادئ والنظريات ما لم يتهيأ العالم غير الإسلامي لمعرفته والوصول إليه إلا بعد قرون طويلة، وما لم يتهيأ هذا العالم لمعرفته أو يصل إليه حتى الآن، ومن أجل هذا تولى الله جل شأنه وضع الشريعة وأنزلها على رسوله نموذجاً من الكمال ليوجه الناس إلى الطاعات والفضائل، ويحملها على التسامي والتكامل حتى يصلوا أو يقتربوا من مستوى الشريعة الكامل، وقد حققت الشريعة ما أراده لها العليم الخبير، فأدت رسالتها أحسن الأداء، وجعلت من رعاة الإبل سادة للعالم، ومن جهال البادية معلمين وهداة للإنسانية.

ولقد أدت الشريعة وظيفتها طالما كان المسلمون متمسكين بها عاملين بأحكامها تمسك بها المسلمون الأوائل، وعملوا بها وهم قلة مستضعفة، يخافون أن يتخطفهم الناس فإذا هم في عشرين سنة سادة العالم وقادة البشر، لا صوت إلا صوتهم، ولا كلمة تعلو كلمتهم، وما أوصلهم لهذا الذي يشبه المعجزات إلا الشريعة الإسلامية، التي علمتهم وأدبتهم ورققت نفوسهم وهذبت مشاعرهم، وأشعرتهم العزة والكرامة، وأخذتهم بالمساواة التامة، والعدالة المطلقة، وأوجبت عليهم أن يتعاونوا على البر والتقوى، وحرمت عليهم الإثم والعدوان، وحررت عقولهم ونفوسهم من نير الجهالات والشهوات، وجعلتهم يعتقدون أنهم خير أمة أخرجت للناس، يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ويؤمنون بالحق.

كان ذلك حال المسلمين طالما تمسكوا بشريعتهم، فلما تركوها، وأهملوا أحكامها تركهم الرقي، وأخطأهم التقدم، ورجعوا القهقرى إلى الظلمات التي كانوا يعمهون فيها من قبل، فعادوا مستضعفين مستبعدين، لا يستطيعون دفع معتد، ولا الامتناع من ظالم.

وقد خيل للمسلمين وهم في غمرتهم هذه أن تقدم الأوربيين راجع لقوانينهم وأنظمتهم فذهبوا ينقلونها، وينسجون على منوالها، فلم تزدهم إلا ضلالاً على ضلالهم، وخبالاً على خبالهم، وضعفاً على ضعفهم، بل جعلتهم أحزاباً وشيعاً كل حزب بما لديهم فرحون، بأسهم بينهم شديد، تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى، ولو أراد الله بالمسلمين خيراً لعلموا أن الشريعة الإسلامية وقد جاءت كاملة لا يشوبها نقص حاملة في طياتها وسائل التقدم والتطور المستمر للمجتمع هي أصلح الشرائع لعصور التقدم وعصور التأخر على السواء لأنها في كل الأحوال ترمي إلى تكوين الجماعة الصالحة وتوجيهها دائماً للتقدم المستمر والتطور الصالح ولا تقنع من ذلك بما هو دون الكمال.

---

٢٦ لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم (166 - 168).

وإن في تاريخ المسلمين لآية وإنه لعبرة لمن كان له قلب، وإن فيه الدليل الحاسم على أن الشريعة الإسلامية هي التي خلقت المسلمين من العدم، وجعلتهم أمة فوق الأمم ودفعتهم إلى الأمام، وسلطتهم على دول العالم، وإن فيه الدليل الحاسم على أن حياة المسلمين وتقدمهم ورقيهم متوقف على تطبيق الشريعة الإسلامية، فالمسلمون من صنع الشريعة كيانهم تابع لكيانها، ووجودهم مرتبط بوجودها، وسلطانهم تابع لسلطانها.

إلى أن قال: "... وليعلم هؤلاء أن سبب تأخرنا وانحطاطنا هو أننا لم نطبق الشريعة تطبيقاً عادلاً ولا كاملاً في عهودنا المظلمة المتأخرة، وإن حكامنا من الأتراك والمماليك كانوا يحكمون هواهم في كل ما يهتمون به، ويحكمون الشريعة فيما لا يضرهم ولا ينفعهم، وإذا كان سبب تأخرنا هو إهمال الشريعة وترك أحكامها فلن يجدينا الأخذ بالقوانين شيئاً بل سيزيدنا تأخراً على تأخر وانحطاطاً على انحطاط، وإنما علاجنا المجدي هو القضاء على سبب التأخر، والعودة لأحكام الشريعة.

لقد طبق أباؤنا بعض أحكام الشريعة دون البعض الآخر، وآمنوا ببعض الكتاب وكفروا ببعضه فصدقهم الله وعده - إن وعد الله حق - وأخزاهم في الحياة الدنيا، وجئنا على آثارهم، نتبعهم ونؤمن إيمانهم فأخزانا الله كما أخزاهم، وسلط علينا كما سلط عليهم، وجعلنا عبرة لأولي الألباب، ولن يغير الله ما بنا حتى نغير ما بأنفسنا، وقلوبنا، ونؤمن بالكتاب كله، ذلك وعد الله والله يقول الحق وقد قال: **{إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ}**.

لقد آمن المسلمون الأوائل وحسن إيمانهم فمكن الله لهم في الأرض وإن الذي مكن لهم على قلتهم وضعفهم قادر أن يمكن لنا في الأرض إذا آمنا وحسن إيماننا ذلك وعد الله لعباده في قوله: **{وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِم}**.

وذلك وعده لمن اتبع كتابه وتمسك بشريعته، حيث يقول جل شأنه: **{قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيم}** المائدة 16.

إلى أن قال: "... والتجربة وحدها هي التي تبين قيمة الأنظمة الجنائية ولا عبرة بالمنطق المزوق، الذي يصح مرة، ويخيب أخرى، ولست آتي بجديد حين أقول هذا وإنما أكرر ما قاله علماء القوانين الوضعية مجتمعين في اتحاد القانون الدولي، حيث قرروا أن أحسن نظام جنائي هو الذي يؤدي عملاً إلى نتائج أكيدة في كفاح الجريمة، وأن التجارب هي وحدها الكفيلة بإبراز هذا النظام المنشود، ولقد أبرزت التجارب الحديثة أحسن الأنظمة الجنائية وتبين أن هذا النظام المنشود هو الشريعة الإسلامية، وكانت التجارب التي امتحنت فيها عقوبات الشريعة على نوعين كلية وجزئية.

فأما التجربة الكلية فقد بُدئ بها في مملكة الحجاز من حوالي عشرين عاماً، حيث طبقت الشريعة الإسلامية تطبيقاً تاماً، ونجحت نجاحاً منقطع النظير في القضاء على الإجرام، وحفظ الأمن والنظام، ولا يزال الناس يذكرون كيف كان الأمن مختلاً في الحجاز، بل كيف كان الحجاز مضرب الأمثال في كثرة الجرائم وشناعة الإجرام، فقد كان المسافر فيه كالمقيم لا يأمن على ماله ولا على نفسه في بدو أو حضر في نهار أو ليل، وكانت الدول ترسل مع رعاياها الحجاج قوات مسلحة لتأمين سلامتهم ورد الاعتداء عنهم، وما كانت هذه القوات الخاصة ولا القوات الحجازية بقادرة على إعادة الأمن وكبح جماح العصابات ومنعها من سلب الحجاج أو الرعايا الحجازيين وخطفهم، والتمثيل بهم وظل حماة الأمن في الحجاز عاجزين عن حماية الجمهور حتى طبقت الشريعة الإسلامية، فانقلبت الحال بين يوم وليلة، وساد الأمن بلاد الحجاز، وانتشرت الطمأنينة بين المقيمين والمسافرين، وانتهى عهد الخطف، والنهب، وقطع الطريق، وأصبحت الجرائم القديمة أخباراً تروى، فلا يكاد يصدقها من لم يعاصرها أو يشهدها وبعد أن كان الناس يسمعون أشنع أخبار الإجرام عن الحجاز أصبحوا يسمعون أعجب الأخبار عن استتباب الأمن والنظام، فهذا يفقد كيس نقوده في الطريق العام فلا يكاد يذهب إلى دار الشرطة ليبلغ حتى يجد كيسه كما فقد منه معروضاً للتعرف عليه، وهذا يترك عصاه في الطريق فتنقطع حركة المرور حتى تأتي الشرطة لرفع العصا من مكانها، وهذا يفقد أمتعته وييأس من ردها ولا يبلغ عنها ولكنه يجد الشرطة يبحثون عنه ليردوا إليه ما فقد منه.

وبعد أن كان الأمن يعجز عن حفظه قوات عسكرية من الداخل وقوات عسكرية كبيرة من الخارج أصبح الأمن محفوظاً بحفنة من الشرطة المحليين تلك هي التجربة الكلية وكفى بها دليلاً على أن النظام الجنائي في الشريعة الإسلامية يؤدي عملاً إلى قطع دابر الجريمة وإنه النظام الذي يبحث عنه ويتمناه اتحاد القانون الدولي"٢٧.

ويقول وفد كبار رجال الفكر والقانون في أوربا وقد شاهد بعينه آثار التجربة والإنجاز: "من هنا ومن هذا البلد الإسلامي يجب أن تعلن حقوق الإنسان لا من غيره من البلدان وإنه يتوجب على العلماء المسلمين أن يعلنوا هذه الحقائق المجهولة عند الرأي العام العالمي والتي كان الجهل بها سبباً لتشويه سمعة الإسلام والمسلمين والحكم الإسلامي عن طريق أعداء الإسلام والمسلمين، وألحّ أن تكتب للوفد الأجوبة القيمة - التي سمعوها - لتكون في أيديهم وثيقة

---

٢٧ التشريع الجنائي الإسلامي مقارناً بالقانون الوضعي (20/1، 22، 62، 712).

مكتوبة يدافعون بها عن الإسلام ويشرحون بها الحقيقة لكل راغب في المعرفة.
وقال أحد أعضاء الوفد: ... وإني بصفتي مسيحياً أعلن أنه هنا في هذا البلد الإسلامي يعبد الله حقيقة وأنه مع السادة العلماء بأن أحكام القرآن في حقوق الإنسان بعد أن سمعها ورأى في الواقع تطبيقها هي بلا شك تفوق على ميثاق حقوق الإنسان٢٨.

العنصر العاشر: الدّعوة إلى الدِّين الحق والعقيدة السلفية

من بدهية الأمور أن رجلاً عظيماً أقام دولته على أساس الكتاب والسنة سيكون بلا شك من أهم إنجازاته الدعوة إلى الدين الحق والعقيدة الصحيحة، وهذا ما حصل بالفعل من الملك عبد العزيز رحمه الله.

يقول في أحد خطبه سنة 1351هـ : "أنا مبشِّرٌ أدعو لدين الإسلام ونشره بين الأقوام، أنا داعية لعقيدة السلف الصالح، وعقيدة السلف الصالح هي التمسك بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وما جاء عن الخلفاء الراشدين"٢٩.

ويقول أيضاً: "وقد جعلنا الله - أنا وآبائي وأجدادي - مبشرين ومعلمين بالكتاب، والسنة، وما كان عليه السلف الصالح، لا نتقيد بمذهب دون آخر، ومتى وجدنا الدليل القوي في أي مذهب من المذاهب الأربعة رجعنا إليه وتمسكنا به، وأما إذا لم نجد دليلاً قوياً أخذنا بقول الإمام أحمد..."٣٠.

ويختتم كلمته أمام المؤتمر الإسلامي بقوله: "أسأل الله عز وجل أن يوفقني وإياكم لإقامة دينه الحق وخدمة حرمه وحرم رسوله صلوات الله وسلامه عليه والتأليف بين جماعة المسلمين والحمد لله رب العالمين.."٣١

وفي خطاب ألقاه أمام عدد من كبار موظفي الدولة سنة 1346هـ وهو يعيد صياغة إنسان هذه الجزيرة بما يتفق والإسلام الحق يقول: "تعلمون أن أفضل الأعمال كلمة حق تقال، وأن أفضل الأعمال معرفة الحق واستعماله، والمجالس يجب أن تكون للنصيحة والإرشاد، نحن نريد أن نسير إلى الأمام بأقدام ثابتة وفي ضوء النهار، إن رأينا واعتقادنا وآمالنا في السير إلى الأمام يجب أن يكون وفق ما كان عليه نبينا صلى الله عليه وسلم وما كان عليه السلف الصالح، فما كان موافقاً للدين في أمور الدنيا سرنا عليه، وما كان مخالفاً نبذناه٣٢.

وفي سنة 1347هـ قال في القصر الملكي بمكة: "يُسموننا "بالوهَّابيين" ويسمون مذهبنا "الوهابي" باعتبار أنه مذهب خاص، وهذا خطأ فاحش نشأ عن الدعايات الكاذبة التي كان يبثها أهل الأغراض.

نحن لسنا أصحاب مذهب جديد أو عقيدة جديدة، ولم يأت محمد بن عبد الوهاب بالجديد فعقيدتنا هي عقيدة السلف الصالح التي جاءت في كتاب الله وسنة رسوله وما كان عليه السلف الصالح.

ونحن نحترم الأئمة الأربعة ولا فرق عندنا بين مالك والشافعي وأحمد وأبي حنيفة وكلهم محترمون في نظرنا.

هذه هي العقيدة التي قام شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب يدعو إليها وهذه هي عقيدتنا وهي عقيدة مبنية على توحيد الله عز وجل، خالصة من كل شائبة منزهة من كل بدعة، فعقيدة التوحيد هذه هي التي ندعو إليها وهي التي تنجينا مما نحن فيه من محن وأوصاب... والله إنني لا أحب الملك وأبهته ولا أبغي إلا مرضاة الله والدعوة إلى التوحيد، ليتعاهد المسلمون فيما بينهم على التمسك بذلك وليتفقوا فإنني أسير وقتئذ معهم لا بصفة ملك أو زعيم أو أمير بل بصفة خادم أسير معهم أنا وأسرتي وجيشي وبنو قومي والله على ما أقول شهيد وهو خير الشاهدين.."٣٣

وفي خطبة له عام 1348هـ في حفل أمانة العاصمة في مكة المكرمة يقول: وليس الغرض من هذه الاجتماعات الأكل والزينات - فإن هذا لا يهمنا - وإنما المهم عندنا أن نتذاكر مع إخواننا بما يعلي كلمة التوحيد ويدعو لإخلاص العبادة لله فهذا جل ما نقصده من هذه الاجتماعات... إلى أن قال: "وكل همي هو موجه لإعلاء كلمة الدين وإعزاز المسلمين، سنبقى مثابرين - أنا وأسرتي - على هذه الخطة إلى ما شاء الله ولن نحيد عنها قيد شعرة بحول الله وقوته، ومن الله نسأل التّوفيق والهداية"٣٤.

وفي حفل بمبنى وكالة المالية في الطائف سنة 1351هـ أمام كبار رجالات الدولة يقول: "وإذا ما بلغنا إلى جهة من الجهات أمرنا أهلها باتباع كتاب الله وسنة رسوله وما نحن إلا مجاهدون في سبيل الله، وإن أول شيء نحافظ عليه، ونعض عليه بالنواجذ ونحارب دونه ولو أهل الأرض هو ديننا ووطننا، وهذان الأمران لا نقبل فيهما قولاً ولا تصرفاً ولا هوادة، إنَّا نبذل النفس

---

٢٨ ندوات علمية حول الشريعة الإسلامية وحقوق الإنسان في الإسلام (26).
٢٩ المصحف والسيف (84).
٣٠ المصحف والسيف (88).
٣١ المصحف والسيف (51).
٣٢ المصحف والسيف (53).
٣٣ المصحف والسيف (55 56).
٣٤ المصحف والسيف (61 62).

والنفيس دونهما لأنهما عظيمان عندنا ولا يمكن أن نتخلّى عنهما قيد شعرة، ومن لامنا في ذلك فليضرب رأسه بالجدار"٣٥.

وفي خطاب له يقول - وهو يتحدث عن الجيوش القوية التي أصبحت تحت يده -: "إن هذه القوة موقوفة لتأييد الشريعة الإسلامية، ونصرة الإسلام في الديار التي ولاني الله أمرها أعادي من عادى الله ورسوله، وأصالح من لا يعادينا ومن لا يناوئنا بسوء"٣٦.

ويقول أيضاً في كلمة له: "إنني رجل سلفي وعقيدتي هي السلفية التي أمشي بمقتضاها على الكتاب والسنة"٣٧.

هكذا كان هاجس الملك عبد العزيز رحمه الله، دعوة صادقة إلى الدين الحق وبناء عقدي منبثق من الكتاب والسنة، بل إن الأمر يصل إلى حد الحس المرهف في أمر العقيدة والدين.

يقول الزركلي: "في إحدى زيارات الملك عبد العزيز لبلدة الخرج يوم 1363/12/7هـ دخل عليه شاعر من أهل نجد وفي يده قصيدة استأذنه في إلقائها وابتدأ بمطلعها: "أنت آمالنا وفيك الرجاء"..

فصاح الملك: تخسأ، ولمح في المجلس الشيخ حمد الجاسر فقال علمه التوحيد يا ابن جاسر٣٨.

وفي اجتماع الملك عبد العزيز بأحد الملوك العرب أراد الملك العربي أن يؤكد أمراً فقال: "وحياة رأسك. فنظر إليه عبد العزيز وقال: قل: "والله"٣٩.

ويتلقى في مفتتح عام 1349هـ البرقية الآتية: "صاحب الجلالة مكة في مثل هذا اليوم بزغ نجم العروبة عند إقبال الزمان، وأنت الآن محط أنظارها ومناط آمالها فلعل الله اختارك لتجديد شبابها ولإعادة مجدها حياك الله وأحياك، أحمد زكي باشا".

وكان الجواب :

إلى أحمد زكي باشا بمصر

نسأل الله أن يوفقنا للعمل بالمبادئ التي تأسست يوم بزوغ نجم العروبة لأن في ذلك السعادة والسؤدد كله.

عبد العزيز"٤٠.

هكذا القمم في مبادئها، وقيمها وثباتها، على تلك المبادئ والقيم، ومن هنا يعلم خطورة قول المترحم على أبي خلدون ساطع الحصري.. وأمثاله: "إن دعاة القومية من أولهم إلى آخرهم كانوا لعبد العزيز، وبه، ومنه..!!" سبحان الله أين داعية الدين الحق والعقيدة الصحيحة وحامي حمى الحرمين من غوائل الاستعمار العسكري والفكري، أين هذا من ركائب الاستعمار ودعاة التغريب والردة كما تشهد بذلك طروحاتهم واعترف أنه ما كان لي أن أزج بذكر القومية "رموز وفكر" وسط سيرة البطل لولا أنهم قد تجرأوا وادعوا في عبد العزيز ما ليس لهم فكان لزاماً أن أنبه إلى الحقيقة التي قد تلتبس على بعض أنصاف المثقفين أو المشوهين فكراً وولاءً.

العنصر الحادي عشر: الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر في حكمة وحزم

من المعلوم لدى المسلمين ما أكدته الشريعة الإسلامية من أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأنه واجب على المسلمين كل حسب علمه وطاقته، ويتأكد في حق ولاة الأمر، إذ هو أحد أهم صمامات الأمان في المجتمعات، بل أنه أحد أهم مؤهلات الأمة المسلمة للخيرية على جميع البشر... **{كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ}**٤١.

ولاشك أن الملك عبد العزيز رحمه الله - وهو المسلم الواعي المراقب لربِّه - مدرك هذه الحقيقة وقد جاء ذلك واضحاً في عدد من أقواله وأفعاله. فها هو سنة 1344هـ بعد أن بايعه أهل الحجاز يلقي كلمة بليغة يدعو فيها إلى الصراحة والتناصح بين مختلف طبقات المجتمع وإلا هلك الجميع وضاعت الأولى والآخرة، يقول رحمه الله: "اعلموا أنّ ما من رجل مهما بلغ من المنازل العالية، يستطيع أن يكون له أثر، وأن يقوم بعمل جيد إذا كان لا يخشى الله، وإنّي أحذركم من اتباع الشهوات التي فيها خراب الدين والدنيا، وأحثكم على الصراحة والصدق في القول، وعلى ترك الرياء والملق في الحديث. لم يفسد الملك إلا الملوك وأحفادهم، وخدامهم، والعلماء المملقون وأعوانهم، ومتى اتفق الأمراء والعلماء ليستر كل منهم على صاحبه فيمنح الأمير المنح والأمراء يدلسون ضاعت حقوق الناس وفقدنا والعياذ بالله الآخرة والأولى"٤٢.

ويقول في كلمة سنة 1346هـ أمام عدد من كبار موظفي الدولة: "هنا محاكم شرعية ولجان الأمر بالمعروف، أسست لإظهار الحق وأنتم - أيها القوم -أمناء لهذا الدين ولهذا البلد

---

٣٥ المصحف والسيف (85).

٣٦ المصحف والسيف (85).

٣٧ المصحف والسيف (128).

٣٨ شبه الجزيرة 746/2.

٣٩ الوجيز (185).

٤٠ شبه الجزيرة (812/2 813).

٤١ سورة آل عمران آية "110".

٤٢ تاريخ نجد الحديث (429).

الأمين، وأنتم مسؤولون عنه، وأنتم خدامه، فالأوامر التي تطبق على أهل البلد يجب أن تطبق عليكم، ولا جوز في أية حال تطبيق الأوامر على فريق دون آخر.

نحن نطلب منكم:

أولاً: إقامة الصلاة في أوقاتها، ولا يجوز التَّخلف عنها قط.

ثانياً: اجتناب جميع المحرمات، والابتعاد عن مجالسة الأشرار، ومخالطتهم، وعدم الجلوس في مجالس السوء والريب.

ثالثاً: عدم تقليد الأغيار بما يخالف آداب الشريعة السمحة، وصفوة القول: إنه يجب عليكم اتباع أوامر الحكومة، والعمل بها على شرط ألا تكون مخالفة للشرع، وما عهدنا أنها أصدرت أمراً يخالف الشرع قط.

وثقوا بأننا سنتولى أمر التفتيش عن ذلك بأنفسنا، ونقسم بالله أننا سنهاجمكم على حين غرة، فإذا رأيت أحدكم حاد عن الطريق السوي، وقام بأعمال تلزم إدانته بدأنا بإدانة رئيسه ثم بإدانة ذلك الشخص بدون هوادة ولا شفقة، وأعلمكم بأن الجزاء والقصاص لن يكون إلا صارماً"٤٣.

ويقول أمام المؤتمر الوطني سنة 1350هـ: "إن التقصير واقع وأنا مسؤول عن هذا التقصير، ولا أستطيع أن أهمل هذا الأمر، وقد كلفت بالبحث فيه حيناً هيئة الشورى وحيناً هيئة التحقيق، ولكننا لم نصل إلى نتيجة حاسمة فيجب أن تنظروا في هذه الأمور وأمامكم مسألتان:

ففي المحكمة قضايا مضت عليه سنتان أو ثلاث وهي واقفة معطلة وهذا أمر مشكل، ومن رأيي انتخاب هيئة من العلماء للنظر في هذه القضايا والبت في أمرها بتاً نهائياً.

ثم مسألة الشُّهود والقدح فيهم وهذا واقع في الحجاز واشتكى منه القضاة وهذا أمر مشكل فالإنسان الذي يصنع القبيح ويثبت عليه ذلك يقام عليه الحد، وكذلك ينظر في القدح الذي يقام، فإذا صح أقيم الحد على المقدوح به، وإذا لم يثبت يجازي المفتري، والحقيقة أن السواد من الدعاوي تأخر أمرها لهذا السبب، هذه الأمور في الحقيقة من أساس الدين فإذا أمرنا بالمعروف ونهينا عن المنكر وأصلحنا المحاكم هانت الأمور واستقرت الأحوال"٤٤.

وأمام كبار رجالات الدولة والشخصيات والأعيان في الطائف سنة 1351هـ يقول: إن الذي دعاني لجمعكم في هذا المكان هو النصح لكم حتى لا يغتر السفيه بالحلم، ولا يسترسل في غوايته وأحذركم من أمرين:

الأول: الإلحاد في الدين والخروج عن الإسلام في هذه البلاد المقدسة فوالله لا أتساهل في هذا الأمر أبداً، ومن رأيت منه زيغاً عن العقيدة الإسلامية فليس له من الجزاء إلا أشده ومن العقوبة إلا أعظمها.

الثاني: السفهاء الذين يسول لهم الشيطان بعض الأمور المخلة بأمن البلاد وراحتها فهؤلاء شأني معهم شأن الديناميت مع النار.

الناس أحرار في مأكلهم ومشاربهم ومرازقهم، ونزههم، ومن اعتدي عليه فليراجعني لأنصفه، ولو جاءني أيٌّ إنسان وقال إن ولدك فيصل أخذ مالي واعتدى عليّ فإن رآني أنصفته منه علم أني أقول وأصدق في القول، وإن رآني أهملته وساعدت ولدي على ظلمه فعند ذلك له الحق عليّ، ولينعم كل إنسان بنعمة الإسلام، وغير هذا لا نعمة ولا حرية فمن كان مشارفاً بنظره من قرب أو بعد فليعلم أن الناس لم يتركونا رحمة أو عطفاً وإنما تركونا لأن الله أراد تأييدنا ونصرنا.

وقد أتيت بهذا البيان نصيحة لمن قد يغويه إبليس بوسواسه.

وإني إذا قلت فعلت، وإذا فعلت أمضيت ثم لا أبالي بما يكون، هذه نصيحتي يبلغها الشاهد منكم الغائب، وليعلم الجميع أني لا أحمل حقداً على أحد إلا على شخصين:

إما رجل ملحد في الدين، أو يقصد البلاد بسوء، فمن كان في نفسه شيء من ذلك فلا يأمن عقابي"٤٥.

هذا هو عبد العزيز: قوة في إيمان، علم وعقيدة، وعمل، ثم متابعة وتوجيه رجل قيم ومبادئ، وإنك لتعجب وأنت تتابع جهد عبد العزيز في إعادة صياغة إنسان هذه الجزيرة في الشمال وفي الجنوب، في الشرق وفي الغرب، كيف كان على علم ودراية بكل ما يجري في هذه البلاد الواسعة رغم قلة وسائل الاتصال وتواضعها وكيف كانت وسائله موفقة في الإصلاح الذي تم من خلال أجهزته وولاته أحياناً والاتصال المباشر بالجماهير أحياناً وكل ذلك لتحقيق هدف واضح المعالم وغايات نبيلة محددة - وهو يعلم قبل ذلك وبعده أن الناس - وأي ناس؟ - لم يتركونا رحمة وعطفاً - وإنما تركونا لأن الله أراد تأييدنا ونصرنا .

فرحم الله أبا تركي وجزاه خيراً على كل ما قدمه للإسلام والمسلمين، والحمد لله أن جهوده لم تذهب هدراً إذ جعل في بنيه وأبناء شعبه البركة فها هي مؤسسة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا تزال إحدى المؤسسات الكبيرة في الدولة تؤدي دورها المنوط بها على الوجه المطلوب.

العنصر الثاني عشر: الاهتمام بأمن المسلمين ووحدتهم

الملك عبد الملك عبد العزيز رحمه الله، قائد محنك، ومسلم واعي، كان يعلم أهمية

---

٤٣ المصحف والسيف (53).

٤٤ المصحف والسيف (68 69).

٤٥ المصحف والسيف (81 82).

الأمن، والوحدة فبذل غاية جهده لتحقيق ذلك وهو يردد قول الله تعالى: **{وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ}**٤٦.

وسأترك لأقوال الملك عبد العزيز وبعض المؤرخين والكتّاب عرض بعض الصُّور الجميلة لما تم على يدي عبد العزيز في هذا المجال.

يقول في كلمة له بالقصر الملكي بمكة سنة 1350هـ أمام كبار الحجَّاج: "... وإني والله لا أقبل على بلادي ولا على بلاد المسلمين مايضرُّ بهم، وإني أحترم الشائب منهم كأبي، والوسط كأخي والصغير كابني، وهذا ما أعاهد الله عليه ثم أعاهدكم عليه، والحقائق ظاهرة كالشمس"٤٧.

ويقول سنة 1351هـ أمام كبار الحجاج أيضاً: "أنا مسلم وأحب جمع كلمة الإسلام والمسلمين وليس أحب عندي من أن تجتمع كلمة المسلمين، وإنني لا أتأخر عن تقديم نفسي وأسرتي في سبيل ذلك، أنا عربي وأحب عز قومي والتألف بينهم، وتوحيد كلمتهم وأبذل في سبيل ذلك مجهوداتي، ولا أتأخر عن القيام بكل ما فيه المصلحة للعرب وما يوحد أشتاتهم ويجمع كلمتهم"٤٨.

ويقول رحمه الله: "لقد حكمتْ هذه البلاد حكوماتٌ قوية، ذات طول وحول قبلنا ولكنها لم تقدر على تأمين الطرق بين مكة وجده فضلاً عن بقية الأماكن والطرقات، أما اليوم فإن الأمن سائد في طول البلاد وعرضها قد لمستموه بأيديكم وشاهدتموه بأعينكم وهذا من فضل ربي علينا، ونحن لا نقول هذا للافتخار وإنما للإشارة إلى أننا - أسرتي وشعبي - جند من جنود الله نسعى لخير المسلمين، ولتأمين راحة الوافدين إلى بيت الله الحرام وأداء مناسكهم..."٤٩.

ويقول الملك عبد العزيز سنة 1359هـ أمام كبار الحجاج: "كل ما ندعو إليه هو جمع كلمة المسلمين واتفاقهم ليقوموا بواجبهم أمام ربهم وأمام بلادهم والذي نشهد الله عليه ونحن أوسطكم في الإسلام وأوسطكم في العروبة أننا ما ننام ليلة إلا وأمر جميع المسلمين يهمنا، يهمنا أمر إخواننا السوريين، وأمر إخواننا الفلسطينيين وأمر إخواننا العراقيين، وإخواننا المصريين تهمنا حالتهم ويهمنا أمرهم ويزعجنا كل أمر يدخل عليهم منه ذل أو خذلان لأننا نرى أنهم منا ونحن منهم كما تهمنا جميع بلاد المسلمين وإننا نرجو الله أن يوقظ المسلمين من غفلتهم ليتعاضدوا ويتعاونوا"٥٠.

واسمع كلام الريحاني الوافد من الغرب صاحب الجولات في البلاد العربية والمشاريع العريضة التي تساقطت - بعد أن أقرت من ملوك العرب - على صخرة عبد العزيز "حنا أهل نجد نبغي المحافظة قبل كل شيء على أمرين: ديننا وشرفنا"، "ما رأيك يا حضرة الأستاذ - عبد العزيز يخاطب الريحاني - لا تقل لي أن لا دخل لك بالسياسة، وأن سياحتك في بلادنا سياحة علمية فقط، حنا نفهم ومد يَده على لحيته وهو يبسُم بسمته الخلابة. لا تخدعنا يا أستاذ"٥١ ٥٢.

يقول الريحاني في وصف ما تحقق على يدي الملك عبد العزيز رحمه الله من أمن:

"... عدلُ ابن سعودٍ كلمةٌ تسمعها في البحر، وفي البر، وفي طريقك إلى نجد قبل أن تصل إليها، كلمة يرددها الركبان في كل مكان يحكمه سلطان نجد من الأحساء إلى تهامة ومن الربع الخالي إلى الجوف... أحكام الشرع... تنفذ في نجد بلا تردد ولا محاباة ولا مرافعات لولبيات طويلات، حكم ابن سعود لا يعرف في سبيل العدل كبيراً أو غنياً... وقف يوماً أحد... الحطابين ومعه أربعة جمال محملة ساومه قيمُ السلطان عليها فطلب الجمالُ روبيتين ثمن كل حمل وسعره الاعتيادي نصف روبية... فقال القيم وكان الجمال قد ولى بأحماله: ..."لولا الشيوخ والله لأدبته"، ولو كنا في معسكر تركي أو أوربي وكان الجيش بحاجة إلى الحطب فهل تظن أنهم كانوا يعاملون هذا الحطاب مثل هذه المعاملة... لولا الشيوخ لفعل الخدامون بالبدو الحطابين... الفعلات.. وإذا كان العدل أساس الملك فالأمن أول مظهر من مظاهر العدل. وفي نجد اليوم من الأمن ما لا تجده في بلادنا أو في أي بلاد متمدنة لا يظنني القارئ مبالغاً بما أقول.. القوافل تسير أربعين يوماً في ملك ابن سعود من طرف إلى طرف من القطيف مثلاً إلى أبها، أو من وادي الدواسر إلى وادي السرحان دون أن يتعرض لها أحد من البدو أو الحضر، دون أن تسأل من أين وإلى أين... كانت الطرق في الإحساء في عهد الأتراك لا تعبر إلا بقوة عسكرية أو بدفع "الخوة" وكانت الطريق بين العقير والحسا وهي طريق التجارة إلى نجد الأسفل، أكثرها وأشدها أخطاراً فكان التاجر العربي المسلم الذي يروم الوصول إلى الهفوف - مسافة أربعين ميلاً - يضطر أن يدفع "الخوة" كلما اجتاز

---

٤٦ سورة آل عمران آية (103).

٤٧ المصحف والسيف (77).

٤٨ المصحف والسيف (84).

٤٩ المصحف والسيف (89).

٥٠ المصحف والسيف (119).

٥١ ملوك العرب (524، 529، 544).

٥٢ وأنَّي له ذلك أبا تركي وهو مع من حفظ الله فحفظه أمام تلك التحديات العظام، والملاحظ أن الملك عبد العزيز رحمه الله فيمن اتصل به يأخذ منهم ما يريد ولا يأخذون منه إلا ما يريد هو.

خمسة أو عشرة أميال من هذه الطريق المخيفة، طريق التجار والأموال.
جاءها العجمان من الجنوب.
وبنو مرة من الربع الخالي.
والمناصير من قطر وما دونها.
وبنو هاجر من الشمال من نواحي القطيف والكويت.
وجاء من داخل البلاد من وراء الدهناء الدواسر الأشاوس.
فحاموا كلهم على هذه الطريق وربطوها، وقطعوها، وتقاسموا أموال قوافلها كان يجيء التاجر من البحرين مثلاً فيدفع قبل أن يطأ برجله العقير خوة للعجمان.
ومن العقير إلى النخل خمسة أميال، وخمسون ريالاً خوة للمناصير، ومن النخل إلى أم ذر خمسة أميال، وخمسون ريالاً خوة لبني مرة ومن أم ذر إلى العلاة خمسون ريالاً خوة لبني هاجر ومن العلاة إلى... الخ، وإذا فاز التاجر المسكين بحياته وبقي في كيسه، فمن المؤكد أن أحماله لا تصل كلها إلى الحسا، وكان إذا خرج عسكر الترك لتأديب أحد من هؤلاء العشائر يطاردهم البدو فيغلبونهم ويأخذون خيلهم وثيابهم..
هذه هي حال الأحساء قبل أن تسقط في يد ابن سعود، أما اليوم فقد مررنا في النفود بجمل بارك رازح تحت حمله فسألت عن صاحبه فقيل لي إنه سار في طريقه، وسيرجع بعد أن يصل إلى البلد بجمل آخر يحمل البضاعة وقد يموت الجمل الرازح ويبقى حمله على قارعة الطريق عشرة أيام فيعود صاحبه فيجده، وما مسته يد بشرية كما تركه في مكانه كيف تمكن ابن سعود من إقامة مثل هذا الأمن وتوطيده في بلاده؟
بأمرين:
أولهما: الشرع.
وثانيهما: تنفيذ أحكام الشرع تنفيذاً لا يعرف التّردُّد ولا التمييز ولا الرأفة"٥٣.
هكذا استطاع الملك عبد العزيز رحمه الله إعادة صياغة إنسان هذه الجزيرة بوسائل مضمونة النتائج فتغيرت الأوضاع، وعاش الناس في أمن واستقرار، والوسائل التي غير بها عبد العزيز أوضاع الجزيرة باقية صالحة لكل زمان ومكان ولتحقيق ذات النتائج متى مكن لها كما أراد الله وذات الوسائل هي التي استمرت في إعطاء أفضل النتائج إلى اليوم في المملكة العربية السعودية رغم تطور المجتمعات البشرية الاجتماعي والأخلاقي وانفتاح العالم على بعضه بشكل مذهل.
عن الأمن في المملكة وفي حدود 1392هـ يقول أحد كبار رجال الأمن في أمريكا وقد سئل هل يركب سيارة مدرعة عند زيارته للسعودية فقال مانصه: "في هذا البلد فقط يشعر الإنسان بالأمن"٥٤.
ويقول الشيخ التويجري: "أقرَّ - يعني الملك عبد العزيز - الأمن في شبه الجزيرة العربية فسعد بذلك حجاج بيت الله الحرام، وسعد به أيضاً كل المسلمين، وبفقدان الأمن والاستقرار في حكم مترهل تفقد الأمم مقومات حياتها، حالة عامة متى وُجدت وجد معها الضياع في كل ما هو وراء سرير نوم الحاكم ولو لم توجد مثل هذه الحالة لما سقطت دول، وانهارت عروش... والأمن في هذه الحالة الفريدة ممكن أن يقول عنه قائل إنه واقع لا نبخسه حقه وقدره الكبير لكنه صار إلى ماض مضاف إلى التاريخ بوسائله، وإنسانه، وأيامه، بالنسبة لأمن الشعوب اليوم التي تداخلت فيها ومعها مسارات واسعة في العقل والفكر والأرض والفضاء فمن تجاوز في حساباته مع الأمن هذه الحقائق، ومقدار نفسه وظل في نعاس في عالم يقظ ستوقظه الأحداث من حوله أو فيما هو بعيد عنه إذا افترضنا أن هذا العالم اليوم شيئاً بعيداً في عصر الاتصالات والعقول الحاسبة"٥٥.
ومع تقديري وتأييدي لما ذهب إليه الشيخ التويجري من استحثاث جيد وتحذير يقظ فإنني على ثقة أنه يتفق معي تماماً - وهو ما يعتقده كل مؤمن بالله - أن إنسان هذا العصر وغداً وإلى أن تقوم الساعة ومستحدثاته لن تستعصي على شرع الله الذي جاء من لدن حكيم خبير وهو صالح لكل زمان ومكان والبقاء له وحده، هذا الشرع وراء جواب ذلك المجرم الذي حينما سئل في بلد مجاور جداً - مارس فيه عدداً من السرقات في مدة قصيرة: هل سبق أن مارست هذا العمل في السعودية التي عشت فيها سنوات كثيرة - فكان جوابه "يا معودين هناك يقطعون اليد"٥٦.
هذا الشرع والثّقة به وتطبيقه قولاً وعملاً هو السبب فيما تحقق من تغيير على يدي الملك عبد العزيز مما ظن أنه أصبح أمراً لا مناص منه وحتى وصل الاستسلام له أن أفتى بعضهم بإسقاط فريضة الحج باعتباره أمراً غير مستطاع كما ذكر ذلك التويجري. تحقق ذلك الأمن علي يدي الملك عبد العزيز رغم التَّحديات العظيمة التي واجهها.. جهل، وفقر، وقلة إمكانيات، وقوى

---

٥٣ ملوك العرب (556 560).
٥٤ نشر هذا الجواب في حدود عام 1392هـ في وسائل الإعلام ويتعذر عليَّ الآن توثيقه.
٥٥ لسراة الليل هتف الصباح (637 649).
٥٦ نشر ذلك التحقيق على لسان أحد أعضاء مجلس الأمة في ذلك البلد في مجلة المجتمع الكويتية قبل عدد من السنوات واعتذر عن عدم التمكن من التوثيق لعدم وجود العدد تحت يدي عند إعداد هذا البحث.

معادية ومؤامرات تحاك في الداخل والخارج.

العنصر الثالث عشر: الصبر، والأناة، والحكمة، والواقعية في معالجة أمور الدولة

الأناة والحلم خصلتان يحبهما الله ورسوله ٥٧ وقد رزق الله الملك عبد العزيز رحمه الله قدراً عظيماً من الصبر، والأناة، والحلم، والواقعية في معالجة أمور الدولة وإليك بعض ما يؤكد ذلك.

يقول كشك وهو يعلق على بعض صور صبر الملك عبد العزيز: هذا العملاق كان يتمتع بقوة خارقة في السيطرة على جسده الكبير.

ففي شرخ الشباب، وعندما اقتحم بيت عجلان كان عليه أن ينتظر للفجر حتى يقوم بالخطوة التالية، وهي ساعات تتوتر فيها أعصاب أشجع الشجعان، ويفر النوم من كل عين فهو داخل بيت عدوه، في مدينة يسيطر عليها هذا العدو وهو على مرمى السهم من الحصن. وصرخة امرأة ولو من الرعب، يمكن أن توقظ المدينة كلها وتثيرها ضد هذا المجهول عند الحريم، صرخة واحدة أو اشتباه حارس، أو غلطة من أحد المرافقين يمكن أن تضع حداً لحياته ومغامراته، والقضية التي خاطر في سبيلها، ولكن لأنه لا يمكن فعل شيء حتى الفجر. والانتظار يرهق الجسد ويتلف الأعصاب، ومعركة الفجر تحتاج لطاقته كاملة. إذاً لابد من النوم.

ليتمرد الجسد، لتصرخ الأعصاب محتجة ولكنه قرار عقلي، وإذا قرر عقل ابن سعود فلابد أن يطيع الجسد. وقد كان ونام.

وهذا في اعتقادي أشجع عمل قام به في مغامرة ليلة المصمك أو فتح الرياض وقد فعلها مرة أخرى عندما أغلق أبواب قصر ابن عقيل عليه هو وجنده ونام وابن رشيد يزحف بخمسة عشر ألف جندي من الأتراك والعرب بمدافعهم.

وعندما حانت لحظة المغيب ووصل الجسد إلى نهايته المحتومة.. انقلب الوضع، فبعدما كانت المشكلة هي كبح الجسد المتفجر بالقوة أصبحت عند الغروب هي مقاومة فتور هذا الجسد وضعفه، وقد ظل العقل الشامخ مسيطراً في الحالتين..

وهناك روايات كالأساطير ولكنها غير مستغربة من محارب مثله مات وفي جسده 43 طعنة وأشهرُ تلك الأساطير حادثة انفجار حزام الرصاص في بطنه... ولكنه كتم الأمر طول الليل وعندما عرض إصابته على مرافقيه قال لهما لو علم أحد بها قتلتكما ودخل الأحساء راكباً وجلس في القصر، وخطب وتزوج في تلك الليلة لكي لا تتحول الهزيمة إلى كارثة بإشاعة إصابته أو موته... ولنا إذاً أن نصدق حادثة الرصاصة التي أصابته في فخذه فلم تصدر منه همسة ولا حركة يعرف منها الجالسون حوله هل أصيب أم أخطأته الطلقة٥٨.

وإذا أردت أن تقف على أعجب ما يتصور من التحمل والصبر والأناة إلى أن يصبح الحسم أمراً لا مفر منه ولا مندوحة عنه فانظر "من مذكرات تركي الماضي 88 إلى 115" في المراسلات التي تمت بين الملك عبد العزيز ومندوبية وولاته في تهامة حول مسألة الإدريسي.

ومن أقوال الملك عبد العزيز رحمه الله التي تدل على ما منحه الله من حلم وصبر وواقعية قوله "العرب اليوم هم كالطفل الصغير، يحتاجون إلى عناية شديدة، فمن الواجب على الذي يتولى أمرهم أن ينصحهم، ويرشدهم إلى الطريق الصواب، وقد عملنا الواجب في هذا الصدد، ولكن إذا تمادى البعض في غيهم وظهر أن المصلحة العامة مهددة اضطر ولي الأمر للضرب على الأيدي وسفك الدماء فهو في عمله هذا كمثل الطبيب الذي يستعمل أنواع الأدوية التي يحتاج إليها المريض، ويضطر في بعض الأحيان إلى بتر عضو من الأعضاء حفظاً لسلامة المجموعة، وقد قالت العرب في أمثالها لهذا الصدد "آخر الدواء الكي" والقتل أنفى للقتل.. وقال تعالى: **{وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ}** ٥٩. يعلم الله أن كل جارحة من جوارح الشعب تؤلمني، وكل أذى يمسها يؤذيني وكذلك الشعب يتألم إذا أصابني شيء ولكن المصلحة العامة تضطرني لأن أقضي على من لا يصغي للنصح والإرشاد، وبأن أتجرع ألم ذلك حفظاً لسلامة المجموع، إنني أتألم جد الألم إذا رأيت بعض الأشخاص يشذون عن الطريق السوَّي فيصغون لوساوس الشيطان، ومما لاشك فيه أن المصلحة العامة هي فوق كل مصلحة، ولذلك فإن مصلحة المسلمين ترخص الأنفس في بعض الأوقات"٦٠.

ويقول: "... أنا أتأخر وأتقدم بقدر الحاجة ولا أعمل عملاً أخرب به بلادي، وإذا جاء وقت العمل واللقاء فالعار على الذي يتأخر... أما الهرج والمرج والكلام الذي يضرنا أكثر مما ينفعنا فهذا ما لا دخل لي فيه"٦١.

ويقول: "... تعلمون أننا ما دخلنا الحجاز إلا بعد أن حوربنا في وطننا، وإنا والله لا نقبل على أمر إلا إذا بلينا فيه وإذا بلينا في شيء دافعنا عن ديننا وأنفسنا، وقوميتنا ووطننا فيأخذ الله بيدنا وهذا فضل من الله علينا"٦٢.

ويقول رحمه الله: "إن أحب الأمور إلينا أن يجمع الله كلمة المسلمين فيؤلف بين قلوبهم ثم

---

٥٧ جاء ذلك في حديث ابن عباس عند مسلم. كتاب الإيمان 48/1 رقم17 ترتيب عبد الباقي.

٥٨ السعوديون والحل الإسلامي (63 66).

٥٩ سورة البقرة آية (178).

٦٠ المصحف والسيف (58).

٦١ المصحف والسيف (76).

٦٢ المصحف والسيف (80).

بعد ذلك أن يجمع كلمة العرب فيوحد غايتهم ومقاصدهم ليسيروا في طريق واحد يوردهم موارد الخير، وإذا نحن أردنا ذلك فلسنا نروم إتمامه في ساعة واحدة لأن ذلك يكون مطلباً مستحيلاً كما أننا لا نرمي من وراء ذلك إلى التحكم بالناس وإنما غايتنا أنه إذا لم يكن لنا من وراء هذا التضامن خير فلا يكون لنا من ورائه شر على الأقل.

كلكم يذكر حوادث العام الماضي.. وهذا السيد عبد الله بن وزير وهذا السيد الحسن الإدريسي - الجالسان الآن إلى جانبي - ماكنا نظن أن يكون بيننا وبينهم عداوة وبغضاء ولكن الأشرار فرّقوا بيننا، والله عز وجل قد جعل هذا التباغض ألفة بيننا وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم.

لقد خشي المسلمون عاقبة التنابذ الذي حصل بيننا، ولكنه أفضى إلى خير جم طرب له المسلمون.

جاء ابن الوزير إلى هنا وحدثني في هذا المكان الجالس فيه الآن بشأن الخلاف قلت له ماذا تبغون؟ فإذا أنتم قتلتموني من يخسر؟ أنتم وحدكم؟.. لا.. لا الخسارة علينا وعليكم على حد سواء. ولما عرفت أننا وإياكم متفقون على أن النتائج هي الفرقة والخسران، وإن هذا الخسران واقع علينا جميعاً أمرت بالقرطاس والقلم وجلست أنا وإياه وحدنا ووضعنا مواد المعاهدة التي اطلعتم عليها والتي قابلها المسلمون بارتياح فإلى مثل هذا التضامن أدعو المسلمين إليه والعمل به٦٣.

ولما ورده اقتراح بهدم مدينة من المدن وإزالتها من الوجود كان جوابه رحمه الله:

ما هو بخاف أن هدمها مشكل:

أولاً: من طرف الله وخوفاً منه تعالى في الأمور التي تتجاوز الحد، أيضاً فايهة هذه عند الدول وعند الأعداء ما هي فايهة طيبة ويحصل منها اعتراضات قوية فتركها وتحصينها وإعداد السكان فيها هو الأفضل٦٤.

وفي قصة المحمل المصري المشهورة - وهو بدعة لم تكن في عهد النبوة ولا الصحابة ولا الدولتين الأموية والعباسية - وصل الخبر إلى فؤاد الأول - ملك مصر يومئذ - فكان لذلك ردة فعل كبيرة لديه لكن الملك عبد العزيز عالج الأمر بحكمة فأرسل أكبر أبنائه سعود إلى مصر للعلاج ولتصفية الجو مع القصر الملكي فيها ولكن الجفوة استمرت فدعا الملك عبد العزيز إلى تحكيم الشرع. وقال في حديث أفضى به إلى صحفي مصري: لا خلاف بيني وبين مصر وأمر المحمل متروك إلى الدين وإلى حكم الشرع في مصر علماء، علينا أن نستفتيهم وأنا معهم فيما يأتون به من الكتاب أو السنة أبلغ مصر عني أن حكومتي على استعداد لكل تساهل تطلبه الحكومة المصرية يتفق مع الشرع، يقول الزركلي وقد عاد ما بين البلدين الشقيقين إلى ما تقتضيه طبيعة الإخاء٦٥.

ووصفته الكاتبة الفرنسية أندريه فيوليس سنة 1937م فقالت: ... وهو بعيد المطامح طويل التروي، لا يحب المجازفة ويعتقد أن الاستعداد للأمر ودراسته هما الوسيلتان للنجاح.

ويقول الأميركي "ميجر جنرال باتريك ج هيرلي": الملك عبد العزيز أحكم وأقوى من عرفت من قادة البلاد العربية، وإنه لرجل بعيد النظر نافذ العزيمة مستعد لقيادة شعبه إلى التمشي مع ركب التقدم العلمي..٦٦.

---

٦٣ المصحف والسيف (93).

٦٤ لسراة الليل هتف الصباح (653).

٦٥ الوجيز (127 128).

٦٦ الوجيز (191 192).